رحلتي من الكنيسة إلى المسجد لماذا..؟!

ماري ويلدز البريطانية

تقديم

المستشار محمد عزت الطهطاوي



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديــم

أحمد الله تبارك وتعالى الواحد الأحد والمنزه عن الشريك والصاحبة والولد ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد خاتم الرسل والأنبياء المنزل على قلبه القرآن الكريم صوت الحق جل وعلا ، فهو حجته العظمى وآيته الكبرى يقوم فى فم الدنيا شاهد صدق برسالته ناطق حق بنبوته ، فهو القوة الربانية التى غيرت صورة العالم وحولت مجرى التاريخ ، والرحمة المهداة التى أنقذت الإنسانية بعدما ضلت طريقها فأرشدها إلى سبيل الهدى والرشاد .

وللأسف البالغ نرى الناس فى دول الغرب عامة محرومين من تلك الهداية الربانية ؛ لأن الدول الأوروبية المسيحية حرصت منذ قرون وقرون على مهاجمة الإسلام بعد فشل

حملاتهم العسكرية الصليبية فى القضاء عليه خلال القرون الوسطى ، لذلك عملوا على تشويه صورته المشرقة والطعن فى صدق رسالة نبيه ﷺ مع أنهم لو أمعنوا التفكير السليم بعيدا عن التعصب الذميم لوجدوا فى الإسلام ضالتهم التى يبحثون عنها ، فهودين الفطرة الصافية النقية التى لم يطرأ عليها فساد أو انحراف أو تضليل ، قال تعالى : ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (سورة الروم ٣٠) .

وبعـــد :

فهذه رسالة سيدة من نساء الإنجليز تربت فى جو مسيحى كاثوليكى ، ثارت فى داخل نفسها منذ صغرها حتى وصلت إلى سن الشباب أسئلة كثيرة فى الدين والحياة والموت لم تجد عليها إجابة فى محيطها الأسرى والدينى مما أصابها بالإحباط والاكتئاب والتوتر النفسى ، ثم شاء القدر أن تقرأ بعض الرسائل التى حررها

داعية الإسلام التركى سعيد النورسى ، استلهمها من القرآن والسنة النبوية ، فاطمأن قلبها بعد تلك القراءات وهدأت نفسها وشفيت تماما من حيرتها ، فاقتربت من الإسلام حتى عرفته على حقيقته الناصعة ثم اعتنقته ، وصدق الله فى محكم تنزيله إذ يقول : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (سورة يونس ٥٧) .

هذا وبالله التوفيق

٢٣ من ذى القعدة سنة ١٤١٠هـ	**المستشار**
١٦ يونية سنة ١٩٩٠م	محمد عزت الطهطاوى

قصة حياتى قبل الإسلام وبعده

عندما أنظر إلى أيام طفولتى ومقتبل شبابى ، وأقارنها بما كان عليه إخوتى وأخواتى ، وآلاف آخرون ، لاأجد حدثا أو سببا يجعلنى أفترض بأن الله سبحانه وتعالى سوف يفضّلنى عليهم بحكمته باعتناق الإسلام .

كنت الخامسة من ستة أطفال فى العائلة . ولاشك أن الطفولة الأولى ، ولاسيّما لدى الصغار جدا ، تتسم بالبساطة والطلاقة والهدوء . كنا نقضى كثيرًا من أوقاتنا فى حديقتنا المنزليّة التى كانت كبيرة وواسعة ، وكنا نعيش قريبا من البحر ، والدى من عائلة كاثوليكية عريقة ، فتربيتنا – إلى حد كبير – متأثرة بتقاليدهم ، ولكن لم يكن فى بيتنا جو دينى بالمعنى الصحيح ، رغم أننا كنا نجبر على الدعاء بعد وجبات الطعام وقراءة الأدعية الليلية والذهاب إلى الكنيسة أيام

الأحد بالطبع ، وجريا على تقاليد هذه العائلات فالأطفال يرسلون جميعا إلى مدارس داخلية ، فإخوتى أرسلوا إلى مدارس عامة كاثوليكية - تدار من قبل الرهبان - ونحن البنات نرسل إلى أديرة تدار من قبل الراهبات ، فعندما أرسلونى كان عمرى فى الثامنة ، وعلى الرغم من أن التعليم لم يكن رسميا فإنه كان طليقا ومنفتحا وممتعا إلى درجة كبيرة .

وكان للأعوام التسعة التى قضيتها بعيدة عن تربية البيت تأثير عكسى تماما لما كان مطلوبا منى أن أكون عليه ، فقد نشأت غير مؤمنة بل مرتابة ، علما أن النظام قد نجح لدى البعض منا رغم أنه أخفق بالنسبة لى .

كنت أستوضح الأمور فى سن مبكرة ، ولا أقتنع بسرعة ، وأرغب فى أن أعلم مغزى عدم استقرارى هذا وعدم قناعتى . استمرت هذه الأفكار القلقة معى طوال هذه السنين ، حتى أعطيت نسخة من المترجمات الإنجليزية لرسائل النور ، ومنذ ذلك الوقت ، ومن خلال تلك الرسائل شرفت بدخولى فى حظيرة الإسلام واعتنقته دينا لى .

هذا وإن العديد من أولئك الشباب الذين ساروا معى فى النظام التعليمى نفسه قد تركوا ممارسة أصول دينهم بعد تركهم المدرسة بوقت قصير ، مثلما فعلته أنا . وربما لم يكن لدى أولئك رغبة حقيقية أصلا فى ممارسة طقوس الدين ، بيد أنى لم أكن مثلهم ؛ إذ خلال أيامى الدراسية شاركت بحماس فى الطقوس والتراتيل الدينية كلها ، وقد بكيت بمرارة وأسى على إلغاء التراتيل اللاتينية من قبل المجمع الفاتيكانى الثانى . ولكن ذلك النوع من ممارسة الطقوس الكاثوليكية إنما كان يتألف من عادات ليس إلّا ؛ إذ حالما نترك أبواب الدير - التى تغلق وراءنا - تبقى الأمور على ما هى عليه ، ونحن لا نحمل أفكارا متماسكة مترابطة أو ما يسمى بنظام عقيدة نتمكن أن نجابه به العالم الذى وجدنا أنفسنا فيه .

أصبحت الستينات والسبعينات مسرحا لثقافة الشباب الجديدة ؛ فقد رفض كثير من الشباب فى الأقطار الغربية كلها الثقافة والمجتمع الذى كانت عليه الأجيال السابقة ، وبدأوا يبحثون عن مناهج حياتية بديلة . وهؤلاء الشباب مهما كانت

مقاصدهم بريئة إلّا أن طاقاتهم وطموحاتهم محصورة فى قنوات موسيقى الروك والأزياء والاحتجاجات . كانت طاقاتهم يُتلاعب بها بدهاء لتقوية النظام الذى اعتقدوا أنهم يرفضونه ، وفى الوقت نفسه تقتل قابلياتهم الفكرية والشعورية لتفادى أى تحد حقيقى للنظام .

هذه هى الحالة العامة للسنوات التى تلت تركى للمدرسة . وبالنسبة لى فقد كنت أشعر بغضب تجاه العالم كله ، رغم أننى أجهل السبب الحقيقى لهذا الرفض ، وقد بدت كل القيم التى نشأت عليها زائفة ، وعندما كنت أنظر إلى حياة الناس كانت تبدو لى عبثا دون معنى ، بل كنت أرى حياتى عبثا ولكن ماذا عساى أن أفعل ؟!

وعليه فقد خضت ذلك التيار الجارف بحثا عن جواب لما أعانيه . اشتغلت فى أعمال متنوعة وقمت برحلات إلى أقطار متعددة ، كلما سنحت لى الفرصة ، وهنا تكمن نقطة جديرة بالاهتمام وهى أننى وسّعت من مداركى حول العالم

بدرجة لايمكن موازنتها مع ما كنت عليه من قبل ، فشعرت أن هناك عوالم خارج إنجلترا .. فقد بدت موسيقى الروك والأزياء التى كانت لها إغراء كبير وبريق جذاب بالنسبة لمعاصرى ، بدت مبتذلة أمامى وتافهة . كنت أبحث عن أجوبة جوهريّة فى الحياة ، عشت فى تلك الدولة مع البوذيين والصوفيين فى لندن ، ومع أعضاء عديدين كانوا من مختلف الفئات الدينية والسياسية ، وكثيرا ما حاولت وبذلت جهدى لأشترك معهم ولكن دون جدوى ؛ إذ لم تجب أىّ من تلك المعتقدات والأيديولوجيات عن أسئلتى وحاجاتى التى كنت أشعر بضرورتها لتحديد هدفى فى الحياة .

وبمرور الأيام ، أخذت الحياة تشتد صعوبة أمامى أكثر فأكثر ، فبدأت الصراعات والتناقضات التى كنت أعانيها تنعكس على العالم من حولى ،وكلما تلفت حولى كان التشاؤم يغمرنى ويخيم على ظلام دامس ، لم يكن هناك مغزى فى أى شىء حولى ، كل شىء لا معنى له ، كل شىء فى صراع مع آخر ويهاجمه ويهاجمنى معه .

وما دام الكون قد بدأ بانفجار كبير ، فلابد أنه سينتهى قريبا بالطريقة نفسها .. أصبح تفكيرى سلبيا إلى حد لم أعد معه أطيق حتى الأشياء التى كنت أحبها ؛ كالمزارع والأشجار والسماء .. إذ بدت أمامى تافهة لا معنى لها . كانت الأسئلة حولها تحوم فى فكرى لماذا وجدت هذه الأشياء ؟ لماذا تنمو وتعيش ثم تموت ؟ لماذا كنت أشعر بحب نحوها ؟ وعلى غفلة منى سقطت فى هاوية مظلمة لا أكاد أنجو منها ، ومما زاد الأمر سوءا أن الذين كنت أعمل معهم ، ومن هم فى الجامعة معى ، وأصدقائى الآخرين ، كلهم كانوا غافلين عن نوعية المجتمع الذى نعيش فيه ، وكم هو مجتمع مزيف خادع ويتلاعب بخبث بعقول وأفكار الناس جميعا ، ويستثير غرائزهم ويهيج شهواتهم الحيوانية ويخدرهم بوسائل الراحة والترفيه وأنماط من الثقافة ، ولاسيما أولئك الذين يدّعون أنهم مثقفون - نوعا ما - والذين اعتقدوا أنهم يرفضون ظلم المجتمع ويعيشون نمطا مغايرا له ، وفى الحقيقة وجدت من الصعوبة إعذار هؤلاء لعدم تمكنهم من رؤية هذه المظالم ، لذا بقيت وحيدة فى حفرتى الظلماء .

ولكن عندما بدأت بقراءة التراجم الإنجليزية لـ « رسائل النور » لم أستطع فهمها مباشرة رغم أنى قد قرأت أيام كنت فى الجامعة كتبا عن الإسلام كتبها مستشرقون ، كما قد حضرت محاضرات ألقيت فيها بحوث عن جوانب عديدة من الإسلام ، ولكن هذه الكتب كانت مغايرة تماما لرسائل النور . ولم يكن لدىّ مفاهيم حول ربط بعضها ببعض . رغم ذلك فإن شيئا فى ذاتى استجاب إلى تلك الرسائل مع أن فكرى لم يستطع أن يستوعب ما فيها من بحوث ، ولكن مشاعر داخلية عميقة فىّ أخذت تتغذى منها حتى دفعتنى إلى الانكباب على قراءتها وحدى ، فلله الحمد الذى ساقنى إلى هذا الطريق لأنعم بالإسلام . وقد نجوت من تلك الحفرة المظلمة التى كنت أشعر بها وانزاحت عنى غشاواتها واحدة بعد الأخرى بمعاونة أصدقاء مسلمين فى الجامعة وصبرهم علىّ ومؤازرتهم إياى .

وخلال فترة من الزمن بدأنا نعقد مناقشات منظمة ودراسة منسقة – طوال ثلاث سنوات – لقراءة رسائل النور المترجمة إلى الإنجليزية .

يا الله! فطوال هذه السنين كم بدأت تنفتح أمامى دنيا تبدو ذات معنى ومغزى وانسجام وتتناغم مع جمال زاهر ؛ فلقد تعلمنا لغة جديدة للتفاهم مع الدنيا والكون وهى لغة القرآن ، تعلمناها من بديع الزمان سعيد النورسى الذى أفهمنا بالإيمان الخالص فى رسائل النور : ما الكون ! وما الطبيعة ! ومن نحن ! ولماذا هذه الأعداد الغفيرة من المخلوقات ! وما وظائفها ! ولماذا وجدوا وإلى أين المصير ! وكيف أن الإسلام دين كامل متكامل ، وكيف أنه يخاطب عقل الإنسان ومداركه وكل لطائفه ومشاعره ، وكيف يجب أن ننظر إلى الكون من حولنا ، نرتفع بأعيننا من الإحساس بالمادة إلى الإحساس بالمعنى ، ومن عالم الدنيا إلى عالم الآخرة ، وننظر من خلال الخلق إلى أسماء الخالق العظيم والرحمن الحكيم ..

إنه من الصعوبة بمكان التعبير عن الإحساس بالسعادة والاطمئنان والراحة والإثارة فى كل الأشياء التى اكتشفتها بعد قراءتى لرسائل النور وكشفى لحقيقة الحياة بواسطتها . إن دراستى لرسائل النور أخذتنى فى رحلات وسياحات بديع

الزمان الخيالية حول الكون ومشاهداته هناك ، فوجدت معه أن الموجودات كلها تعمل فى مهمات أنيطت بها ، ورأيت أن الأشياء مرتبطة بعضها ببعض وفق نظام واحد منسجم مترابط موحد ، ووجدت أن التعاون والترابط والتواصل جار بين الجميع بوضوح تام وعلى أفضل مايكون ، والجميع يسيرون وفق الحكمة والهدف المخلوقين لأجله . والذى وضعه لهم الخالق الواحد القدير العليم .

الحكمة فى الخلق لاحصر لها ، هذه الحكمة هى التى تربط المخلوقات بعضها بالآخر مظهرة أهدافا لاحصر لها وشواهد لاحدود لها على حكمة الخالق من خلق الموجودات كل مخلوق آية ، وعلامة تدل على الله سبحانه ، يُعرّف أسماء خالقه وصفاته الجليلة وكل شيء يشير إلى الآخرة .. وهكذا فالتأمل فى هذه الأسماء الحسنى يجعل الكون ذا مغزى عميق وبدونه يبقى عبثا لاطائل وراءه .

لقد وجدت أن « رسائل النور » لا تخاطب عقلى وحده ، بل تزيل أدران الشكوك والأوهام الناشئة من عدم الإيمان من أعماق قلبى ومشاعرى كلها ؛

فبينما كنت أرفض كل شيء فى السابق ، وأتلمس منه الإجابة عن تساؤلاتى . أصبحت الآن متجاوبة ومنسجمة تمامًا مع الوجود ، فلا يمنح اطمئنانى أى شيء كان إلّا صفاء الذهن والقناعة والاطمئنان .

كانت حياتى السابقة رحلة إلى الأعماق ، فكانت تغور إلى الأعمق فالأعمق فى ظلمات بعضها فوق بعض من شقاء ويأس ووحشة وشعور بالوحدة والغربة ، بينما الآن أرى نفسى والناس جميعًا قد جُهّزنا بأجهزة ننال بها سعادة الدنيا ، فضلًا عن أنها تنتج سعادة أبدية خالدة .. رأيت أن واجبنا فقط هو فى حسن استعمال أجهزتنا ومعدّاتنا التى منحنا إيّاها ؛ للانسجام مع النّظام المتناغم فى الكون كلّه ، سائرين مع المخلوقات الأخرى وفق الحكمة والهدف الواضح جدًّا أمامنا ، فنشترك جميعًا فى عبادة وتمجيد خالقنا الحكيم الرحمن . ولقد وَضَّح الإسلام وضوحًا تامًّا كيفية القيام بهذه الرحلة وأعطانا بديع الزمان سعيد النورسى الضروريات اللازمة لشرح هذه الرحلة والدليل المثالى لهذه الرحلة الكونية .

* * *

الحضارة الغربية .. استمرار لحضارة الإغريق وروما

إن تاريخ الحضارة الغربية وتركيبها بالغ التعقيد ، فليس من السهولة بمكان إبراز أهمية النصرانية من خلالها دون القيام بتبسيط السؤال من جهة ، وسبر غوره من جهة أخرى !

النصرانية بحد ذاتها معقدة ، وظاهرة ذات أوجه عدة ، كما طرأت عليها تغييرات عديدة ، وانقسامات طوال العصور الماضية .

منذ بداية ظهور النصرانية ازدهرت شيع وطوائف ذوات طبائع متباعدة ضمن الحركة النصرانية ، كل منها تحمل آراء تتعارض وأغلب المعتقدات الجوهرية فى العقيدة النصرانية . وقد طغت آراء « الأرثوذكسية » بداية القرن الرابع للميلاد ،

بعد اعتناق الإمبراطور « قسطنطين » للنصرانية ، ومنذ تلك الفترة رسمت معالم النصرانية فى ضوئها . وعلى الرغم من أن المفاهيم قد تطورت لاحقا إلى لاهوت معقد ، فإن الآراء الأساسية فى حق الله كالثالوث ، وانبعاث شخص المسيح (عليه السلام) اعتبرت معتقدات جوهرية وضرورية . كما أن طبيعة السلطة كانت تتشكل من جهة بالإمبراطور – رئيسا للكنيسة – يساعده طبقة من الأساقفة والقساوسة والشماسين ، ومن جهة أخرى جمهور المؤمنين .

تلك قرون شاهدت تطورات عديدة وانقسامات داخل ما كان معروفًا من النصرانية ؛ ففى سنة ١٠٥٤ م رفضت الكنائس الأرثوذكسية الشرقية مطالب البابوية وانسلخت عن الكنسية الكاثوليكية الغربية .

وعلى الرغم من كل هذا فقد ظل الهيكل الداخلى للمعتقدات والكنائس متشابهًا مع كنيسة روما ، وقامت حركة الإصلاح فى القرن السادس عشر ، فشقت الكنيسة الغربية متحدية لهيمنتها وطبقها ، وإذا كانت هناك محاولات جادة للرجوع إلى الإنجيل وتطهير المعتقد النصرانى نفسه . وعلى الرغم من ذلك فإن أغلبية

الطوائف البروتستانتية وكنائسهم لم تتطور إلى شيء يختلف جوهريًا عن الكنيسة الكاثوليكية ، سوى رفض السيادة البابوية وأمور طفيفة .

وعليه ، يمكننا أن نستخلص النقطتين الآتيتين :

أولاها : أن الكنيسة اعتبرت ممثلة عن النصرانية ، على الرغم من أن معتقداتها تتعارض مع الوحدانية التى علّمها المسيح (عليه السلام) ، وقد فُرضت تعاليمها على أسس النظام الاجتماعى والسياسى الرومانى القائم .

ثانيتها : أن التركيب الداخلى للكنيسة بطبقاتها من جهة ، وعامة النصرانيين من جهة أخرى ، كانوا تحت ضغوط الكنيسة ؛ إذا لم تكن تسمح لممارسة الفكر وتطوير العلم والمعرفة .

ويمكننا إذن القول بأن حضارة نصرانية حقيقية لم تقم ، إلّا أن الحضارة الغربية القائمة - والتى تعرف بالحضارة النصرانية - إنما هى فى الحقيقة تطور للحضارة الإغريقية الرومانية القديمة .

وكما قلنا فى البداية ، فإن السؤال معقد جدا ! فالحضارة الغربية لكونها مادية فى فلسفتها وفى جوهرها ، فإننا يمكننا القول أنها تلطفت وتهذبت بل تلينت بالنصرانية النابعة من تعلميات المسيح (عليه السلام) التى حفظت فى « العهد الجديد » . وكان تأثيرها هذا على الحضارة الغربية يختلف باختلاف العصور ، فكانت (النصرانية) فى بعض فترات التأريخ أقوى من غيرها . ولعل الأصوب أن نقول : إن النصارى فى الغرب - على مستوى الأفراد - قد أخذوا وما زالوا يأخذون إرشادات الإنجيل ويستلهمون منه .

كانت الكنيسة فى بداية القرون الوسطى قد سيطرت بقبضة خانقة على كل أنماط الحياة الثقافية ، ومثلما ذكرنا سابقا أن التركيب الهيكلى للكنيسة نفسها والقوة التى كانت تتمتع بها للضغط على المؤمنين منعت أى نمو لروح البحث العلمى ! إذ كان التعليم مقتصرًا على رجال الدين ، والغالبية العظمى من النصارى يقتفون آثار جهلهم (رجال الدين) دون بصيرة . فضلا عن أن القوة المطلقة التى منحت للبابوية لم تسمح لأى تقدم فكرى بين رجال الدين أنفسهم ، حتى

أن أى فكر جديد أو سؤال حول عقيدة الكنيسة ، يوصم بالهرطقة ويخمد كأى تقدم آخر فى حقول المعرفة والثقافة .

ولهذه الأسباب ، ولأسباب أخرى فإن المجتمع والحضارة نفسها استطاعت أن تتقدم على قدر رفضها للسيطرة الظالمة للكنيسة ، فكلما خفّت القبضة الخانقة للكنيسة حدث ارتفاع فى الاكتشافات العلمية وفى التقدم فى شتى حقول المعرفة .

ترى ماذا تكون تلك الأسس غير استمرارية عصر النهضة التى تؤكد على المادية الكلاسيكية للحضارة الرومانية اليونانية والاستلهام منها مصدرًا للحضارة الغربية !

* * *

من أجل سعادة البشرية
« ينبغى للفلسفة أن تكون فى طاعة الدين »

فى (الكلمة الثلاثين)[1] من رسائل بديع الزمان سعيد النورسى ، يشرح المؤلف تاريخ الإنسانية بأنها عبارة عن تيارين أو مسارين فكريين : مسار النبوة والدين ، ومسار الفلسفة والعلم ويربطهما (بالأنانية)[2] الإنسانية ، ثم يصف النتائج التى نجمت عن كل منهما ؛ فمسار النبوة الذى يمثل الوحى الإلهى يخاطب

---

(١) وهى رسالة [أنا .. ذات الإنسان وحركات الذرات فى الفلسفة والدين] .
(٢) مشتقة من « أنا » الذى حمل أمانة الله فى الوجود ، وليست تلك الصفة المذمومة فى الإنسان – المترجم .

قلب الإنسان بينما مسار الفلسفة يخاطب عقله . والغاية المثلى من المسارين الاندماج ، أى متى كان مسار الفلسفة فى طاعة مسار الدين فقد عاشت الإنسانية فى انسجام حقيقى وسعادة ، ولكن متى افترقا فإن الصلاح والنور ينجذبان نحو الأول ، والشر والضلال يتجمع حول الآخر .

وعليه فإن الإنسان ، عندما لا يتقبل الوحى الإلهى يعتمد على عقله وحده ، وتكون شهواته ونزواته هى ميزانه ، حيث إنه يظن أنه مالك لنفسه ، فإنه سيضطر لأن يتصور كل شيء مالك لنفسه أيضا . وهذا هو أساس الفلسفة المادية ، إذ بينما ينبغى أن تحال قوة كل سبب من الأسباب ، من أكبر المجرات إلى الدقائق الصغيرة من الذرات ، إلى قوة خالقه ، نرى – فى هذه الفلسفة – تعزى تلك القوة إلى السبب نفسه ، فيحيل الإنسان عندئذ القدرة على الخلق إلى مفهوم زائف كالطبيعة أو القوانين الطبيعية أو قوى الطبيعة . وبما أنه لا يقبل ما أرسل من قبل مالكه الحقيقى من دليل ، وتصميم (منهج) ، ومرشد ، فلن يكون باستطاعته إذا معرفة كيف يكون مخاطبا له ؛ إذ سيصطدم بصعوبات وتناقضات كثيرة ؛

لأنه اعتمد على عقله وحده وعلى معاييره وحدها . وسوف يسقط هذه التناقضات والصراعات التي يلاقيها فى نفسه – كنتيجة لعمله خلافا لما خلق له – فى العالم خارج نفسه ، وسوف يتصور الأمور التى يراها فى العالم بأنها صراع ومنافسة وجدال ، فيأتى بادعاءات غير منطقية كـ : « الحياة صراع » و « الحق فى القوّة » و « التعايش للأقوى » .. الخ . وليس من الصعب مشاهدة شرح هذه العبارات شرحا وافيا فى الفكر الغربى !

فضلا عن ذلك فإن هذا الإنسان سوف يرى الوجه الظاهرى للكون فقط ، دون أن يفهم معناه ومغزاه ، فالكون – بالنسبة له – كله لا معنى له ولا قصد من ورائه . وما يدعيه من قوة وتملك سوف لاتجلب له سعادة حقيقية ، بل على العكس فإن نزواته غير المحدودة ستجعله عبدا لكل غاية يبحث عنها لتلبية رغباته .

وحيث إنه يرفض عبادة خالقه الحق ، فسيقوم بعبادة أصنام وآلهة (مزيفة) لعديد من الأفكار التى تمنحها القوة ، فيتردى من كونه ثمرة شجرة الخلق وغايته

إلى دركات الذل والهوان ؛ لتقليده أية فكرة تجلب له منافع شخصية ، وسعيه دوما لإشباع أطماعه .

وعليه فإذا طرحنا جانبا - للحظة - عناصر النصرانية التى أثرت فى الحضارة الغربية ، نرى النتائج السلبية الفاسدة للأسس القائمة فى مسار الفلسفة والعلم . ولنقتبس من كلام بديع الزمان ؛ إذ يقول : (إن هذه الحضارة تأسست على خمسة أسس سلبية : فنقطة استنادها هى : القوة ، وهذه شأنها : التجاوز . وهدفها : المنفعة ، وهذه شأنها : التزاحم . ودستورها فى الحياة : الجدال والصراع ، وهذا شأنه : التنازع . والرابطة التى تربط المجموعات البشرية هى : العنصرية والقومية السلبية التى تنمو على حساب الآخرين ، وهذه شأنها : التصادم ، كما نراه ، وخدمتها للبشرية خدمة جذابة - هى : تشجيع هوى المنفعة ، وإثارة النفس الأمارة ، وتلبية رغباتها وتسهيل مطالبها . وشأن الهوى : مسخ الإنسان معنويا) .

وحيث إن الحضارة الغربية لا تنبع من الحقيقة وصدق الواقع ، وأن هدفها ليس الحقيقة والصدق ، فهى مضطرة لأن تلجأ إلى الأكاذيب والحجج الواهية حتى تديم نفسها ، كالصراع والعنف ، والمصلحة الذاتية ، والخلاف ، والتمييز العنصرى ، والشهوة .. الخ ، التى تمجها فطرة الإنسان ، لهذا فهى تخفى هذه الأمور البشعة وتتعمد حذف فطرة الإنسان وتبليدها ، ولكى تحقق نوعا من التوازن بين هذه القوى الفوضوية تشغل الشباب دون رحمة ، وتؤلب فئة على أخرى فى المجتمع ، وتؤجج نار العداوة بينها ، وتثير الشهوة الحيوانية ، والتمييز العنصرى ... من خلال الأفلام والفن الإباحى وموسيقى البوب والتليفزيون ووسائل الدعاية والإعلام ، ثم تحاول السيطرة على انطلاق هذه القوى من عقالها من خلال ما يبدو بريئا ككرة القدم والرياضة ، وحفلات الموسيقى ، والمظاهرات السياسية ... وأمور أخرى تغذى النزاع بين الفئات المختلفة عرقيا واجتماعيا .

فالقصد الأساسى لهذا النظام هو : جعل الناس فى حالة توقف فكرى ، وقتل مشاعرهم ، وخنق رغباتهم الداخلية المتطلعة لمعرفة الحقيقة . فالصرح العظيم للفن

والثقافة الغربية موجه نحو تحقيق هذا الهدف . ولا سيّما : آنها تخاطب الطبقات المثقفة بما يرضى مشاعرهم ويربت على غرورهم ، وتخدعهم بجعلهم يعتقدون أنهم يعنون بالحقيقة ويهتمون بها . أما النظام الاقتصادى المبنى على الهدر والاستهلاك فإنه يهدف إلى إقامة فردوس مادى ومزيف لقلة قليلة من أقسام المجتمع ، والذى يغرق الإنسان الغربى التعيس فى الملذات التى تورث كلل الذهن وعدم التفكير فى المآل والمصير . ياللهول ! فقد صنعوا لهذا الإنسان جحيما ، فليس الإنسان حيوانا ؛ إذ بينما يغمر جسمه فى الملذات والإغراءات ، فإن روحه وضميره ، وعقله وقلبه يعانى من عذاب كالجحيم .

مسار النبوّة والدين على خلاف هذا ، أساسه الوحى الإلهى والإلهام الربانى ، فالذى يؤمن به يعترف بأنه لايملك شيئا ، وأنه عبد لله . وواجبه استعمال عقله وجوارحه للبلوغ إلى معرفة الله ؛ ليتعلم كيف يرضيه بالطاعة والعبادة . ويتعلم من الكتب المنزلة – فضلا عن واجبه ذاته – وظيفة الطبيعة الحقيقية للكون كله ووظيفة كل جزء منه . وسوف يتجاوز فكره الظاهر العرضى للموجودات إلى

ماهيتها ، ويرى كل موجود ، كم هو جميل خلقه الله إلى حد يثير الإعجاب فعينه مفتوحة إلى اكتناه المغزى الذى وراء خلق كل شيء وسيرى أن كل كائن من أصغر الذرات إلى أضخم المجرات يؤدى واجبات غير متناهية بخضوع تام وبطاعة وانقياد ، وأن الكائنات يهرع كل منها لمعاونة الآخر وفق قانون « التعاون » الجارى فى الكون كله . فكل الكائنات – أفرادا وجماعات – تدل على عظمة خالقها الواحد الرحمن الرحيم وعلى جماله وكماله .

إن الأسس الرصينة لمسار النبوة تؤدى إلى إقامة حضارة مؤسسة على الأسس الآتية : ولنذكرها بعبارات بديع الزمان :

« إن دعائم [الحضارة النبوية] ونقطة استنادها هى : الحق بدلا من القوة ! والحق من شأنه : العدالة والتوازن ، وهدفها : الفضيلة بدلا من المنفعة ، والفضيلة من شأنها : التجاذب والتعاطف ، وجهة الوحدة فيها والرابطة الجامعة للمجموعات البشرية هى : رابطة الدين ، والوطن والمهنة بدلا من العنصرية ،

وهذه شأنها : الأخوة الصادقة ، والسلام المتبادل ، والذود عن البلاد عند تجاوز الأعداء . دستورها فى الحياة : التعاون بدل الصراع والجدال ، والتعاون من شأنه : التساند والاتحاد . وتضع الهدى بدل الهوى ليكون حاكما على أعمال البشر . وشأن الهدى : رفع الإنسان إلى مراتب الكمالات وتشويق الروح إلى المعالى » .

قبل أن نختم هذا الفصل نحلل بتفصيل أكثر هذه المبادىء المقتبسة من بديع الزمان سعيد النورسى ؛ لنرى كيف تتمثل كلتاهما فى مستوى الفرد والمجتمع ، مركزين أولا على الحضارة الغربية والمجتمع .

لقد رأينا آنفا أن الإنسان إذا جحد الخالق والمالك الحقيقى للكون سوف يحيل الملكية إلى نفسه ويضطر إلى إحالة الملك أو القوة للأسباب أى إلى مخلوقات خارج نفسه ، فمثلا إلى الشمس أو إلى ما يسمى بالقوانين الطبيعية وقواها كالجاذبية والقوى النووية الخ .. وعليه ، فإن هذا الشخص لأنه لا يفوّض أمر الفعاليات الظاهرة فى الكون إلى الخالق يتحكم فيها مباشرة ، وهى مخططة مبرمجة فى علمه

المحيط ، وهو الخالق القوى العليم الحكيم الرحمن الرحيم العادل .. سوف يعزو هذه الفعاليات المثيرة للإعجاب لمفهوم سخيف كالصدفة والحظ فقط ، بل سيرى نفسه أيضا محقا بالسيطرة واستغلال أكبر قدر ممكن من الكون - وفق مصالحه الخاصة - وبقدر ما تسمح طاقته وتصل إليها يده .

ومن هنا تصبح الطاقة أو القوة مبدأ أساسيًّا للفلسفة المادية ، والمنفعة هى الهدف الأساسى . وماذا يعنى هذا عمليا ؟! لقد رأينا بأن الحضارة الغربية مادية فى جوهرها ، مع أنه لا ينكر بأن الكنائس تمارس شيئا من النفوذ على الأفراد والمجتمع ، ولكن لأن النصرانية لم تتمكن من زحزحة الفلسفة الغربية . فإن غايتها ليست رضى الله والقيام بعبادته وطاعته من خلال الامتثال بأوامره وقوانينه ، بل هى غاية محصورة فى متعة الإنسان ومنافعه ، لذا فإن الغاية النهائية للكون - فى هذا المنظور - هى خدمة مصالح الإنسان ، ومن هنا يكون موقف الإنسان تجاه الكون موقف السيطرة والاستغلال . فالكون وجميع ما فيه إذن ماوجد إلّا لخدمة هذا

الإنسان ولمصالحه ، وتقدر تلك المصالح بقدر ما يزيد من هيمنته على الكون . وهذا ما يتبين بوضوح على كل الأصعدة السياسية والقومية والعالمية والمجتمع .

ما هو الهدف الحقيقى للكثير من العلوم والتكنولوجيا الحديثة ! ما حرب النجوم والتسابق فى الفضاء! بينما تهتم الدول بقلق خبراء البيئة بتأثير هذه الأمور على البيئة والاقتصاد ! لندعهم وشأنهم علّهم يفكرون فى أسبابها الحقيقة .

هذا الموقف يعبر بالضرورة عن نفسه على المستوى الشخصى والمستوى العام ؛ لأنه انعكاس لاعتقاد أساسى ، وعلى الرغم من كونه منافيا لطبيعة الإنسان ؛ لأن الإنسان الذى لا يعمل بطاعة الله خالصا ستبقى أعماله متوجهة وفق مصالحه فقط ، ويلهث وراءها على المستوى الشخصى وعلى حساب الآخرين سواء أكانوا أطفاله ، أو والديه ، أو زوجته ، أوأصدقاءه ؟..فنتائج هذه الأعمال واضحة جدا فى الغرب : أعداد متزايدة من البيوت المحطمة ، والعائلات المنحلّة ، الطلاق ، إهمال رعاية الأطفال وتعليمهم وتثقيفهم بصورة صحيحة .. كل ذلك إنما هو بداية ..

أضف إلى ذلك التناقضات والخصومات الناجمة بين من يحمل هذا الرأى وهذه النظرة للعالم ، وما ينجم منها من عدم الاستقرار النفسى والقلق ، والذى بدوره يؤدى إلى أمراض عقلية وسلوكية غير إنسانية . إن سبب زيادة نزلاء السجون والمستشفيات ليس البطالة والظروف الاجتماعية رغم كونهما مشاكل حقيقية ، إلّا أنهما لاتمثّلان الأسباب الجوهرية . فينبغى إذاً أن يتحرى عن السبب الحقيقى . وعلى الرغم من أن الكثير من الناس قد لايهوون إلى هذا الدرك من التطرف ، وأمراض العقل والنفس ، إلّا أن الجميع فى البلاء سواء .

إنّ الإنسان لم يخلق ليتحمّل أعباء الكفر ، فهو عاجز وضعيف ، وفى الوقت نفسه معرّض إلى مالا يحد من الرغبات والحاجات ، وعليه فهو بحاجة إلى : رب قدير ، حكيم ، رحمن ، رحيم ، الذى بمقدوره الإجابة عن جميع الرغبات وتلبية جميع الاحتياجات التى لاحدود لها . وإذا حجب عن هذا الإنسان الإيمان بالله فإنه سيضطر إلى حمل مشاكله التى لايقدر على حلّها وحاجاته التى لا نهاية لها ، فضلا

عمّا يحمله من مشاكل الآخرين والمظالم التى يراها فى العالم ، بحكم ارتباطه مع الكون ، كما أن هنـاك « الموت » تلك الحقيقة التى لامفرّ منها ، والتى تقف بإصرار فى نهاية مسار الحياة .

ترى ما السعادة أو الأمل الحقيقى الذى يتركه الموت لشخص يؤمن بالفلسفة المادية ! هذه الأثقال العظيمة التى يكبل بها الكفر الإنسان تؤدى به إلى عقليّة انهزامية من واقع الحياة . فالحضارة الغربية تجبر الناس على لفّ أنفسهم تماما ببرقع النسيان كى يهربوا مما يشعرون به من آلام ويأس .. ويمكن تمييز هذا بوضوح فى المجتمع الغربى ، فكل الوسائل الإعلامية والقصص والخيال العلمى والرياضة والموسيقى والتليفزيون والفيديو والأفلام والثقافة بصورة عامة ، كلها تستعمل فى نطاق عام وسيلة للهروب من الواقع . الكثير من الناس يعترفون علنا بأنهم يمارسون هذه المسليات والهوايات هروبا من واقع الحياة . إذا شئت فسر فى أى شارع كان أو فتش فى الجامعات أو ابحث بين المثقفين ، وشاهد كم عدد الذين لهم استعداد

للنقاش بجد حول معنى الحياة والموت ! تراهم يتجنبون النقاش حولهما مهما كان الثمن . فالحقيقة مؤلمة جدا ومرعبة حقا بالنسبة لهم ما داموا لم يؤمنوا بالله الرحمن الواحد الأحد .

إنّ الطبيعة الحقيقة للحضارة الغربية باتت واضحة لدى الجميع ، لامفرّ منها ، رغم أن هذه العقليّة الانهزامية تشجع بنشاط فى الغرب كوسيلة لدعم النظام واستمراره .

كان الغرب لأربعة قرون ونصف القرن المنصرمة منشغلا بالتوسع الخارجى ويعمل جادا له ، والقوى العدائية التى ذكرت آنفا كانت موجهة خارج نفسه ، ومسدّدة نحو ذلك التوسع ، ولكن مع انكماشه اختل التوازن . والنظام المادى الغربى يضرم هذه القوى العدائية ويطلقها من عقالها ، ولكن أحيانا تتجه هذه القوى إلى الداخل ، فيشاهد الصراع والعنف الذى لايمكن السيطرة عليه . هذا العنف والنزاع أيضا أصبح مألوفا أيضا لدينا وبأشكال متنوعة : عصابات كرة قدم ، العنف

العنصرى ، العنف السياسى ، عنف الإجرام .. الخ ، حتى أصبحنا لانأمن على أنفسنا فى العديد من الأماكن أثناء السير والتجوال فى الشوارع ، فهناك جو من الفوضى والعدوانية والخوف يستولى على المجتمع .

أما فى الحضارة التى أبرزت جانب الدين وكذا المجتمع ، فنرى أنّ الصورة مغايرة تماما إذ لاتظهر دواعى العداء والقوة ، إذ تفوّض الأمر كلّه إلى المالك الحقيقى للكون مباشرة .

فالمؤمن يلاحظ فى نفسه أنه الغاية من الخلق ، وهو ثمرة الكون ويحمل أمانة الكائنات ، فإن متطلبات منصبه الرفيع هذا هى استعمال جميع حواسه وقابلياته الممنوحة له فى طاعة مالكه القدير الرحيم ، والامتثال بقوانينه وأوامره التى بينها ، ومن هنا سوف تظهر العدالة والاتزان والموازنة فى النفس والمجتمع كما هو جلى فى الكون . وحيث إنه يدرك أن الله هو العليم الرحمن ، مالك الملك والعلم المطلق، ويعرف فى الوقت نفسه أنه عاجز ومحتاج دائما إليه؛ يفهم أن جميع

المنافع والمصالح ، والنعم الطيبات تعطى له مباشرة من الله سبحانه . وعليه فى الوقت الذى يسعى حثيثا ليحظى بنعيم الله ورضاه ، أن يتقبل شاكرا ما يعطى له ويوهب ، وينفر كذلك من أى شكل من أشكال الاستغلال من زملائه المخلوقات ؛ إذ العمل لأجل مصلحة ذاتية وطلب المنافع للذات وحدها إنما هو ناشىء من ادعاء الملكية للنفس ومحاولة بسط هذه الملكية على المخلوقات الأخرى . وهذا يؤدى حتما إلى الاعتداء بشكل أو آخر عليها ، وعندها تختل موازنة الكون ونظامه .

بما أن المجتمع عبارة عن مجموعة من الأشخاص ويتألف منهم ، فالمجتمع الإسلامى الصحيح وحضارته إنما يمكن أن يوجد فقط نتيجة التفاهم الحاصل بين الناس والتوافق فى العقيدة والعمل بمقتضاها . إن المؤمنين بالله رب العالمين وبأسمائه الحسنى وصفاته الجليلة يستطيعون بسط العدالة الحقيقية ، وإبراز المحبة والأخوة الصادقة والتعاون فى المجتمع عندما يستعلون على مصالحهم الذاتية الضيقة ، إلا

أن المرض الحديث المنتشر فى المجتمع و الذى أيضا هو ادعاء القومية و العنصرية التى تعنى بمطالبة زائفة بالتحكم على الآخرين و تشكل العدوان على زملائه المخلوقات فضلا عن الإيذاء الذى تلحقه بالمجتمع الإسلامى] .

و فى الحقيقة ، إن مبدأ الجهاد فى أى ظرف من الظروف إنما هو موجّه للحياة إذ هو دفاع ضد العدوان الخارجي ليس إلّا .

و حيث إن المجتمع الإسلامى الصحيح يعكس نظرة المؤمن للكون ، التى هى ليست عبارة عن صراعات، و «نزاعات» أو «البقاء للأقوى» الخ.. وإنما هى نظام هائل للتعاون و التآزر، لذا نرى أن المؤمن يبسط هذا المبدأ– التعاون– على كل جوانب حياته الشخصية والاجتماعية. ويحاول أن يجعل أعماله منسجمة مع الحكمة والاتزان والنظام المهيمن فى الكون، وفقا لأوامر الله مالك الكون وفى ضوء سنة رسوله الأعظم ﷺ الذى أرسله رحمة للعالمين. هناك أسئلة كثيرة تثار فى أوساط النصارى عامة حول البحث عن الدين الحق،

وهى تأخذ أشكالا مختلفة كما هى فى أماكن متباينة ؛ فالعديد من الأشخاص تركوا الرهبنة والكنائس ؛ لأنهم رأوا أن معدل التغيير الكنسى الرسمى بطىء جدا .

إن هذا الجو المفعم بالبحث والتساؤلات والتقصى يدعو إلى التفاؤل بأن النصارى المخلصين سيتمكنون يومًا من الدخول فى الإسلام .

وهذا يوصلنا إلى الاستنتاج الثانى وهو : إن أقصر الطرق لاكتشاف طريقنا خلال متاهات الحضارة الغربية والنصرانية وتاريخها وعلاقاتها هو الوصول إلى الحقيقة خلال التحليل المبنى أعلاه . ولقد قدم لنا بديع الزمان سعيد النورسى نموذجًا لكيفية رؤيتنا للتاريخ ولأنفسنا وللكون ، وكان ذلك بلغة الوحى الإلهى والدين من جهة ، والعلم والفلسفة من جهة أخرى . وينبغى أن يكون الأخيران مطيعين للمسار الأول ، وليس العكس كما حدث فى العالم الغربى النصرانى حيث غدت الفلسفة هى الحاكمة .

هذا التحليل يبين لنا بوضوح أسس الحضارة الغربية وطبيعتها ، ويدلنا على الطريق الذى يجب أن يسلكه هؤلاء النصارى الراغبون فى إنقاذ أنفسهم من مستنقع المادية والدخول إلى العالم الكامل لدين الله الموحى إلى نبيه العظيم محمد ﷺ .

صورة الإسلام لدى الغرب

هناك حقيقة محزنة إلّا أنها تصور سائد لدى الأوربيين ، وهى : أن الإسلام « دين السيف » ! ولاشك أن هذه الصورة ارتسمت فى أذهانهم منذ الحملات الصليبية فى العصور الوسطى ، ثم غذّيت بعناية منذ ذلك الوقت سواء من قبل الدولة أو من قبل الكنيسة أو كلتيهما معا . فالتحامل على الإسلام حتى من قبل العوام . وحمل صورة قاتمة حول المحجبات والمرأة إنما يدل على جهل عام وعميق بالإسلام .

إن الدولة والكنيسة معا فى أوروبا كانتا دوما حريصتين على إظهار الإسلام بمظهر المعادى لأوروبا وحضارتها ، وغدت أخبار المسافرين الأوروبيين إلى البلاد العثمانية والبلدان المسلمة الأخرى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر نواة

حركة جديدة لإثارة الغرابة الشرقية فى الفن والأدب ، ثم تطور هذا الاهتمام بالتراث إلى حركة الاستشراق العلمى المعروف فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، تلك الحركة التى كانت وثيقة الصلة بالحكومات الأوروبية ودوائرها التجسسية والاستعمارية . إذ تعمدت تلك الدوائر الاستشراقية تشويه الإسلام فى كثير جدا من كتبها التى أصدرتها بل نسج قسم من المستشرقين أبشع الأكاذيب حول النبى ﷺ ، مستترين باسم « الدراسة الموضوعية » . وهكذا يمكن القول : إن المصدر الرئيسى الذى يتوقف عليه فهم الأوروبيين للإسلام هو ما أنتجه الفكر الاستشراقى .

وهناك حقيقة مؤلمة أخرى ، هى أن السياسات المتبعة اليوم فى بعض الأقطار الإسلامية والمقرونة بتصرفات بعض الأفراد المسلمين ، عمقت بدورها هذه النظرة عن الإسلام لدى الأوروبيين .

كيف يمكن أن يفسر القصف الانتقامى للمدنيين فى الحرب العراقية الإيرانية ،

ودعم إيران للإرهابيين فى لبنان وقيامهم بالمجازر الوحشية ، والتغاضى عن استعمال القوة فى أنحاء العالم الإسلامى ! .. كل ذلك يساهم فى تعميق تلك النظرة عن الإسلام . وكيف يمكن بعد كل ذلك أن توضح الصورة لدى الأوروبيين ! وكيف يتسنى لبعض المسلمين الذين يفدون إلى أوروبا سواء إرهابيين أو مترفين يهدرون أموالهم وثرواتهم للإرهاب أو للفساد أن يغيِّروا هذه النظرة لدى الأوروبيين !.. ألا يديم كل هذا تلك الصورة المشوهة والمخزنة عن الإسلام ! ومما يعين على استمرار هذه الحالة هى الدعاية المستمرة ضد الإسلام عن طريق مختلف وسائل الإعلام يستغلون - بذكاء ودهاء - صورة الوافدين إلى الغرب الذين يسيئون إلى الإسلام فى تصرفاتهم - كما أسلفنا - فيسلطون عليها الأضواء فى الإذاعة والتلفزيون والصحف والأفلام مما يشكل سلاحا قويا فى أيديهم فى دفع الجمهور ضد الإسلام وتعميق عدم الثقة بالإسلام ، وزيادة كراهيته ، وثمة سبب آخر يعيق الغرب عن الفهم الصحيح للإسلام هو : طبيعة الدين عند النصارى .

والتى هى محصورة بأن الدين قضية شخصية ليس إلّا ولا يخص إلّا المعتقدات والأخلاق التى تعكس على الجميع ، ولكنه مفصول أساسا عن السياسة والعلم .. إذ أنَّ الدين عنده مبنى على الفصل بين الأمور الروحية والأمور الدنيوية ومن هنا يصعب عليهم فهم الإسلام الذى يجمع بين أمور الدنيا والآخرة .

وحيث إن النصرانية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحضارة الغربية - كما ذكرنا آنفا - فإن للإسلام منهجا شموليا يحتضن جوانب حياة الإنسان كلها فى هذه الدنيا والعالم الآخر ، غير مفهوم - بداهة - وغريب أيضا عن الأوروبيين .

بم تتميز رسائل النور

ولدت وترعرعت كما قلت فى انجلترا، ولدراساتى وبحوثى السابقة عن الإسلام ، كنت أعرف عنه (الإسلام) أكثر من أى إنسان عادى . ولكن مع هذا فقد بقى هدف الحياة وسر الحياة وسر الموت وما هية رسالة الإسلام وأن القرآن الكريم كتاب الله ، كل ذلك بقى مجهولا لدى . وما إن اطلعت على رسائل النور حتى وقفت على الحقيقة ، فكانت سبب إسلامى .

على الرغم من أن مظاهر الحياة الأوروبية المادية وبريقها الخادع وتقدم العلوم فى شتى مجالات الحياة إلّا أن كل ذلك عجز عن تحقيق السعادة وإحلال السلام والطمأنينة فى نفوس البشرية الحائرة . أما بالنسبة للإنسان نفسه فقد تردّت

الأخلاق والآداب إلى درجة أصبحت تهدد مستقبل الإنسان ولاسيما الشباب الذين يعانون من الفراغ العقلى والخواء الروحى بل حتى الجهل بهدفهم ومصيرهم ، مما ألقى وسيبقى يلقى بهم فى غياهب الضياع والجنون المطبق . فأخذوا يبحثون عن الحقيقة لإنقاذ أنفسهم لاسيما بعد أن فشل الإلحاد فى تضميد جراحهم بل أصبح داءهم .فأخذت تراود عقولهم أسئلة تلح عليهم ، مثل : ماسر انتظام الكون وما السر فى جماله الأخاذ وما الغاية منه ! ومن نحن ! ولماذا خلقنا ! وما الغاية من حياة تصير بهم إلى القبر ! وأنا بدورى كنت واحدة من هؤلاء الحيارى ، أبحث عن الجواب الشافى فضاقت بى الدنيا على رحبها ولم أجد دينا أو فكرة أو شخصا يهب لى الطمأنينة والأمان وينقذنى مما أعانى من الضيق والحيرة والضجر حتى استبدّ بى اليأس ولم أجد مخرجا . بقيت على تلك المعاناة حتى قيّض الله لى – والحمد لله – بعض النسخ من رسائل النور ، ومن خلال الدراسة والبحث بدأت أجد الأجوبة لتلك الأسئلة .

إن أهم مميزات رسائل النور هى قابليتها فى الإجابة على تلك الأسئلة الفطرية ، إنها تجيب عن السؤال الكبير : لماذا ! إنها كمفتاح ذهبى ما إن يوضع فى الأذهان ويدار حتى يحل مغاليق المعضلات الشائكة وينير العقول التائهة الحائرة .

وميزة أخرى لرسائل النور أنها تخاطب العقول على كل المستويات حتى أولئك الجاحدين بالخالق والخليقة . ومع أن لرسائل النور من الجاذبية والعمق والحجة والبرهان ما يذهل ، إلّا أن بديع الزمان استطاع فى نفس الوقت أن يجعلها سهلة مقبولة وفى متناول الجميع . إن لها وقع السحر على النفوس فهى باتخاذها أسلوب القصة والمثل والمقارنة تصبح المنظار المكبر يقرّب المعانى إلى الأفهام فتقبلها بدون عناء .

أما بالنسبة للمتأثرين بالثقافة الغربية فلرسائل النور ميزة خاصة ، فهى باتباعها أسلوب القرآن الكريم تلفت النظر إلى الخالق عن طريق مخلوقاته بأسلوب علمى رصين . هذه الميزة ذات أهمية خاصة حيث إن الفلسفة الغربية القائمة على

مايسمى بالعلم تعتمد فى تبرير إلحادها على زعم قائم على الصدفة . بينما تثبت رسائل النور تهافت هذه النظرية بالحجة القوية والبرهان الساطع وثبت كذلك أن هذا الكون إنما هو صنع إله واحد قادر حكيم عليم .

ثمة ميزة أخرى لرسائل النور هى قدرتها على إعادة الناس من الكفر والضلال إلى الهدى والإيمان بعد أن جنوا وذاقوا ثمار الإلحاد المرّة . إن الناس باتخاذهم أندادا مع الله – أى باعتمادهم على مجرد الأسباب فقط – جرّوا على أنفسهم المصاعب والمتاعب وما جنوا إلّا الكوارث والآلام وأصبحت حياتهم جحيما لايطاق .

إلى جانب ذلك كله ، يوضح بديع الزمان طريق الإيمان ، طريق الطمأنينة والأمن والسلام؛ لأن المؤمن يعيش مطمئنا إلى جانب الله ، ولم يعد الموت نهاية له كما كان يفهمه من قبل ، بل أصبح طريقه إلى الجنّة وعد الله لايخلف وعده إنه هو الغفور الرحيم .

* * *

أهمية رسائل النور بالنسبة للأوربيين

لقد تطرقنا إلى جوهر الجواب فى الفصل السابق ، إذ تنفرد الرسائل عن الكتابات الإسلامية المعاصرة فى أسلوب تناولها قضية الإيمان ، فهى ليست تعليقات وشروح للآيات القرآنية الكريمة التى تبحث فى مسائل العقيدة كالتوحيد ووجود الله تعالى والنبوة والبعث والآخرة والملائكة والقدر ، بل تستخدم طريقة القرآن ومنهجه فى البرهنة على تلك الحقائق من خلال التأمل فى الكون والنظر إليه من خلال نظامه وتناسقه وجماله وروعة السنن الجارية فيه ..

وعلاوة على ذلك فإنها تبقى فريدة أيضا بين الكتابات ولها أهميتها كذلك ، إذ أن مؤلفها بديع الزمان سعيد النورسى قد كتبها إجابة عن كثير من الشكوك

والوساوس التى كان يشيعها الملحدون والماديون وفلاسفة الطبيعة . ، فوضّح فيها تلك الحقائق الإيمانية بأسلوب منطقى سليم وبراهين دامغة مع إظهار خطأ تلك النظريات المادية وإثبات تفاهة شكوكها وخلوها من المنطق والحكمة ، مع بيان أن التفسير المنطقى السليم الوحيد والمعقول جدا للكون والإنسان إنما هو كما أوحى به الخالق العظيم .

وقد قدمنا فى الفصل الثانى نبذة عن الأسس المادية التى تقوم عليها الحضارة الغربية رغم تأثيرات النصرانية عليها . ومما يظهر من طريقة بديع الزمان سعيد النورسى الذى طالما يستعمل القصص والحكايات المبسطة والمقارنات : إن الأسباب ليست لها القدرة على الإيجاد وليست لها القدرة على الإحساس والشعور ، بمعنى أن الأسباب لاتأثير لها . علما أن السببية هى أساس المادية ، إلّا أنها تتسمى بأسماء مختلفة كالطبيعة وقوانين الطبيعة وقوى الطبيعة ، والصدفة ، والحظ ... الخ .

ثم يبين « بديع الزمان » بأن ذلك يعنى أن عملية الخلق مستمرة فى كل شىء ،

سواء كان أصغر دقائق الذرة إلى أكبر المجرات السماوية . وهذا يعنى أن الله سبحانه وتعالى هو المؤثر الحقيقى فى الكون والوجود كله ، ولذلك فإن أى اصطلاح كوصف الله سبحانه بـ« المحرك الأول » يعتبر اصطلاحا ماديا .

هذه الطريقة التى نراها فى رسائل النور فى أسلوب تحليلها لطبيعة الإيمان والكفر ، ضرورية لكل أوروبى ، وبالأحرى لكل إنسان ؛ لأنها تعينه على التخلص من مستنقع الشكوك والتناقضات الفكرية التى هى سمة الفلسفة المادية (الحضارة الغربية) ومن بعد ذلك تقربه إلى الحقيقة المنشودة .

وهناك أمر مهم آخر هو أن رسائل النور تشرح أثر الإيمان الصحيح وتبين نتائجه فى الإنسان . كما تصف جوانب عديدة من مظاهر الكون - عندما يُفهم الكون أنه فى حالة خلق مستمر - دليل على قدرة الخالق سبحانه وإظهار أسمائه الحسنى . فالكون حقا معرض عظيم للنعم الإلهية ، وكل جزء منه معمل عظيم رائع ، فالخلق بحد ذاته نعمة خالصة عظمى ، يتمكن الإنسان بجميع مشاعره

الباطنية والظاهرية أن يقدم شكر هذه النعم فى المستويات المختلفة ، وكلما قدم شكره إلى المنعم الحقيقى ، ازداد معرفة بخالقه الرحمن الرحيم ، ويستطيع أن يؤدى بإخلاص عبادته له وشكره تجاهه وهما الواجبان الأساسيان له فى الدنيا .

وهكذا يشير بديع الزمان إلى الطريق الوحيد الموصل إلى السعادة فى هذه الدنيا كما هو فى الآخرة .

هذا الطريق إنما هو فى الإيمان الصادق الذى يجذب السعادة الحقة لصاحبه فى هذه الدنيا الزائلة وفى الحياة الأخرى .

وكما ذكرنا سابقا فإن رسائل النور متميزة من بين الكتب الإسلامية الأخرى المعاصرة إذ هى قادرة على الإجابة على الأسئلة التى تتعلق بالإنسان والحياة والكون وفى الوقت نفسه تقيم البراهين الواضحة بإزالة الشبهات والأكاذيب التى يشيعها دعاة المادية والطبيعة والإلحاد ، حيث إنها تقدم الإسلام على أنه الدين الخاتم والدين الكامل الذى يلبى كل حاجات الإنسان ومتطلباته ويجلب له السعادة فى الأولى والآخرة .

وحسب علمى فإن الكتب الإسلامية الأخرى ، وإن كانت توضح حقائق الإسلام ، ولكنها لاتبلغ طريقة رسائل النور الملهمة من القرآن لغرس الإيمان الصادق فى القلوب والعقول . وعموما فإن الكتب الأخرى توضح الجوانب الاجتماعية والاقتصادية للإسلام ولدى تناولها أمور العقائد الأسياسة كالتوحيد والنبوة والبعث والحشر .. فإن معالجتها تكون وصفية من دون أن تتطرق إلى بحث هذه الحقائق بطريقة قابلة للإثبات إثباتا منطقيا ، لذا لاتوجّه قارئها إلى اليقين بالإيمان الحق . ومما يجب ملاحظته أن تلك الكتب لاتحتوى كل حقائق الإسلام ، ولا تقيم الأدلة على ماتورده من حقائق . وبالقدر الذى رأيته وسمعته فلا أجد أن هناك ما يخالف هذه النظرة ..

* * *

كيف يقدم الإسلام إلى الإنسانية فى بلاد الغرب

للإجابة على السؤال : كيف نقدم الإسلام للغرب ؟ أقترح أن يُقدم على أنه التفسير المنطقى للكون ، أى : نحن والكون ، أى : نحن بحاجة إلى أن نقدمه لهم كما يبينه القرآن الكريم . وهذا يعنى بأنه يجب أن يوضح بأن الله القدير سبحانه لم يخلق الإنسان والكون من حوله عبثا ، بل خلق هذا الكون الجميل البهيج ومنح الإنسان منحة العقل ، وأرسل الأنبياء وأنزل الكتب لهداية هذا الإنسان ، وختمهم بالرسول الكريم محمد ﷺ وبالقرآن الكريم .. وذلك ليساعد هذا الإنسان على الحصول على معتقد منطقى حقيقى حول وجوده ووجود الكون . فإذا ما قدّم الكون هكذا كتابا مفتوحا أمام الإنسان كان خلقه كواسطة تعريف بالكاتب – وهو الله سبحانه –

والبشر مدعوون لاستعمال عقولهم لفهم حقائق الإيمان بصورة منطقية وإثباتها ، عند ذلك تتوضح الأمور ويكون كل فرد مسؤولا مسؤولية مباشرة أمام خالقه ، فلا حاجة عندئذ إلى واسطة بينه وبين خالقه أثناء أدائه العبادة وأمور الدين .

ثم إننا عندما نقدم الإسلام على هذه الصورة المنطقية فإن الأسس الخاطئة التى أصبحت مقبولة لدى النصارى تتوضح بجلاء . وسيفهمون أن الوجود والخلق هو المحض ، وأن العدم والضلال هو الشر المحض . وعندما يفهمون الكون فهما صحيحا فإن الحاجة إلى العقيدة بالخطيئة الأصيلة فى الإنسان تختفى تماما . فالخلق أو الإنسان لايملك أى ذنب كامن كى تكون هناك حاجة للتفكير عنه من خلال آلام ، وموت ، وانبعاث السيد المسيح عليه السلام .

أى يبدأ الأوروبى برؤية الإسلام بوضوح فى مستوى العقيدة . وسيقف بنفسه على نسيج الأكاذيب والصورة المشوهة المزيفة للإسلام التى تطورت عبر القرون. فيرى مثلا التهمة الظالمة بأن الإسلام « دين السيف » ، وبأن الإسلام لا يقبل الاعتداء

على الآخرين فى أى مستوى كان . وسيلمس التعاون الجارى فى الكون ، كله ونظامه المتقن ، وكذا العلاقات بين البشر ، ومن هنا يرفض الاعتداء فى جميع الأعمال . وسيعلم أن الجهاد المعروف بالحرب المقدسة إنما هو للدفاع ضد العدوان الخارجى .

(أما بالنسبة لحجاب المرأة فى الإسلام الذى أصبح حائلًا لفهم الغرب للإسلام فسوف نتناوله فى فصل لاحق) .

وأخيرا نضيف فنقول : إن كل من يدرس الإسلام بصدق سيرى أنه رسالة الله الأخيرة الكاملة التى توافق طبيعة البشر بعيدا عن معوقات الجنس وفروق اللون .

* * *

المـــرأة
فى الغرب والحضارة القرآنية

لقد اتضح فى الفصلين الأول والثانى : أن الحضارة المادية الغربية لاتعنى بتلبية الحاجات الفطرية للإنسان ، وإنما تعمل على استغلاله بأية وسيلة كانت لاستمرار وجودها ودعمها رغم أسسها وقواعدها الفاسدة .

إنّ واقع المرأة فى الغرب محزن للغاية ، فقد تعطل دورها فى البيت وتحطمت أنوثتها ، وأصبحت ضحية للمجتمع الغربى . فالنظام القائم يستغل عرض أجسادهن لأغراض الإعلانات والدعاية . فضلا عن دفع الآخرين للنهم الجنسى وتشجيعهم عليه ، وقد أصبحن تحت ضغط متواصل لاقتناء المزيد من الكماليات ووسائل

الترف المنزلى . علاوة على ذلك فإن عرض الأزياء يستغل استغلالا عجيبا فى الغرب حيث لايقتصر فقط على حث النساء ودفعهن لشراء المزيد من الملابس وملاحقة الزينة ... الخ .. ولكن أيضا بتجديد أثاث المنزل بل حتى الحمامات كل سنة أو سنتين .. وهذا ما يسوقهن بلا شك إلى هجر بيوتهن وعائلاتهن بحثا عن عمل . هذه التحولات والتطورات صورت وكأنها خطوات نحو التقدم والتحرر للمرأة ، والحصول على فرص متساوية مع الرجل فى مجال العمل والمهن . فالمفهوم الخاطىء للمساواة أصبح هو الهدف ، فترى فى المجالات كلها تشجيعا للمرأة للحصول على المساواة ، مع أن المساواة مع الرجل مخالف للطبيعة البشرية مخالفة تامة . غير أن المرأة خدعت واستغلت استغلالا سيئا . وعلى الرغم من معارضتها للاستغلال فإنها ساندت من حيث لا تشعر النظام ، وذلك بمطالبتها بتحرر المرأة والتخلص من عهد « العبودية » عهد البقاء فى البيت ، وأظهر دور الجنس إظهارا مفرطا كأداة لكسب الحرية ! وهم بدعوتهم هذه لا يدعون إلى الحرية بل إلى العبودية ؛ إذ ما يدعون إليه يخالف طبيعة المرأة متمثلا بالحرية المطلقة واتباع الشهوات دون رقيب ولا حسيب .

ياللفرق بين الموقف هذا وموقف القرآن الكريم ! الإسلام رحمة للمرأة ، إنه يعرف طبيعة المرأة التى جبلت عليه ، ويعرف ما يناسبها من اللباس والحاجات ، وفى ضوء ذلك أناط بها واجب البيت وتدبير شؤون أطفالها .

إن زى المرأة ووضعها فى العالم الإسلامى قد اسىء فهمه لدى الغربيين ولكن مئات الآلاف من النساء اللائى تربين فى الغرب ، ووجدن السعادة والكرامة فى الإسلام ، ليشهدن بأن الزى الإسلامى هو الزى الحق الذى يناسب طبيعة المرأة ويحقق لها ما تنشده من السعادة وراحة البال ، ووجدن كذلك أن بقاءهن فى البيت لتدبير شؤونه ليس « حكما بالسجن » وإنما هو واجب سام ما دام يحقق تربية الأجيال(*) . فالزى الإسلامى هو حماية لهذا الواجب المهم . إذا يحفظ المرأة من أى شكل من أشكال المساس بكرامتها واستغلالها وامتهانها .

(*) لابد أن نوضح أن هذه المهمة للمرأة ينبغى ألا تعرقل قابلياتها الفكرية ، بل يجب أن يكمل الواحد الآخر ؛ إذ المرأة القائمة بواجباتها بإتقان فى تربية أطفالها عليها أن تستمر فى زيادة معارفها العقيدية ، فهى =

إن موقف المرأة فى الغرب واضح التناقض ، فهى من جهة تأبى استغلال جسدها وسيلة للدعاية ولكنها من جهة أخرى تطالب بالحرية أو التخلص من أية قيود على لباس المرأة وسلوكها . ولكن يبدو واضحا للعديد من المسلمات الجدد بأن عرض أجسادهن للرجال خارج نطاق أسرهن إنما هو استغلال لهن ؛ إذ العرض أيا كانت طريقته تثير الشهوة للآخرين . وهذا بحد ذاته استغلال للمرأة أيما استغلال . ولاشك أن الاستمتاع من الإثارة هو إهانة للمرأة ، وهى محض العبودية وليست حرية .

فما هى الحرية المطلوبة للمرأة إذن ؟ إن حرية المرأة تتحقق بمعرفة طبيعتها الحقة والحفاظ على تلك الطبيعة وقد أعطاها الإسلام ذلك كاملا ، وأن تعلم كذلك بأن الله سبحانه لم يجعلها مخلوقًا ذا حقوق فقط ، بل ذات واجبات كبقية الكائنات فى هذا الكون ، وأن سعادتها تتوقف على ما تؤديه من تلك الواجبات .

= كأى إنسان كان ، عليها طلب المزيد من المعرفة الإيمانية مع أن مكان وظيفتها .. التى هى من صميم أنوثتها فى البيت . فهذه الواجبات المتكاملة ضرورية الواحدة للأخرى ، وينبغى ألّا يعيق الواحد الآخر .

وما دامت هى مخلوقة لها واجباتها ، فإن السعادة والحرية تزدادان لديها بنسبة معرفتها لمن وهبها هذه الواجبات الكريمة ، ذلكم الخالق الرؤوف الرحيم الحكيم . فكلما ازدادت معرفتهن بالواهب الكريم ، ازدادت سعادتهن وابتعدن عن شهواتهن ورغباتهن . هنا تكمن الحرية ، فى الخضوع والطاعة لرب العالمين الواحد الأحد الحكيم الرحمن الرحيم ، الذى بيده مقاليد السموات والأرض ، ويسخرها وفق حكمته البالغة .

هذه الرسالة

هذه رسالة سيدة من نساء الإنجليز تربت فى جو مسيحى كاثوليكى ، ثارت فى داخل نفسها منذ صغرها حتى وصلت إلى سن الشباب أسئلة كثيرة فى الدين والحياة والموت لم تجد عليها إجابة فى محيطها الأسرى والدينى مما أصابها بالإحباط والاكتئاب والتوتر النفسى ، ثم شاء القدر أن تقرأ بعض الرسائل التى حررها داعية الإسلام التركى سعيد النورسى ، استلهمها من القرآن والسنة النبوية ، فاطمأن قلبها بعد تلك القراءات وهدأت نفسها وشفيت تماما من حيرتها ، فاقتربت من الإسلام حتى عرفته على حقيقته الناصعة ثم اعتنقته ، وصدق الله فى محكم تنزيله إذ يقول : ﴿ **يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (سورة يونس ٥٧) .

الناشر

تهادوا تحابوا..

" حديث صحيح "